وسطية الإسلام .. ووسطية الانهزام

۩ بسم الله الرحمن الرحيم ۩

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه,

وبعد :

أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عندما نتحدث عن أية قضية من قضايا الإسلام، لا بد أن نستشعر من أعماق قلوبنا أن هذا الدين الذي نتكلم عن مسائله هو دين الله تعالى،وهو شعور له تأثيره المباشر في كيفية تقرير المسائل وبحثها والخوض فيها، فالإسلام –كل الإسلام– ليس نظرية أرضية تخوض فيها الأبحاث حرة طليقة بلا زمام ولا خطام، وإنما هو : {كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3)}[الأعراف/2، 3]

فما دام الدين دين الله تعالى، فلا محل إذاً لتلاعب الأهواء، ولا لتخوض الأفكار والآراء، ولا لتخرص العقول والتحاليل، ولا الحرصِ على ترضية النفوس، ولا الخضوع لدعوات مواكبة العصر، ولا الدندنة حول مسايرة رغبات الشعوب، فدين الله يقود ولا يقاد، ويطوّع النفوس ولا تطوّعه، ويحكم الشعوب ولا تحكمه، ويقيّد الأهواء ولا تقيّده، ويتحكم في قضايا العصر ولا تتحكم فيه، ويهيمن على الحياة كلها ولا تهيمن عليه.

فالذين يريدون أن ينقذوا الأرض من الفساد ويخرجوها من ظلمات الغي بمجرد استحساناتهم وآرائهم وأهوائهم تحت شعارات مغرية ولكنها في حقيقتها خاوية، بعيدة عن منهج الحق وسبيل الهدى هؤلاء لن يَحصِدوا من سعيهم إلا الوبال والخبال كما قال تعالى : {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}[المؤمنون/71]

وبما أننا في زمن بلغ فيه (إله الهوى) مبلغاً لم يصله من قبل، وقد سخَّر لنصرته وتعزيزه الجنود المجندة، وفتح على صرح الإسلام الشامخ جبهات متعددة لتقويضه واقتلاع أصوله، فإننا بحاجة حقيقية إلى وقفة صادقة حازمة أمام كل مَن يسعى لأن يكون جندياً من جنود (إله الهوى) الذي برز لنا في صور شتى وألوان متعددة وخر له الكثيرون ركعاً وسجداً يسبحون بحمده وينفخون في إلهيته بعلم وبغير علم، لنسير على بصيرة من أمرنا، وننافح عن أصولنا وعقيدتنا ومفاهيمنا، ونصونها من كل تمييع وتدنيس {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)}[الجاثية/18-20]

أمة الإسلام..

إن هناك شركة تعاونية يقوم عليها شياطين من الإنس والجن، لها رجالها وإمكاناتها، ووسائلها ومؤسساتها، ونفقاتها وجهودها، وخِططها وبرامجها، تقوم على السعي الجاد لتحريف الناس عن دينهم، وتشكيكهم في مسلمات عقائدهم، وتشجيع كل ناعق ليخوض فيها بما شاء باسم الاجتهاد والتفكير والتنظير والتنوير والتحليل ودراسة الواقع والانفتاح والاتزان إلى آخر القائمة المعهودة، وليس له في ذلك حمى يتحاماه، ولا حدود يقف عندها، ولا قواعد وأصول يتحاشاها، بل الكل عنده مرتعٌ مباح، يتنكر – بلا خجل ولا وجل– للحق الصراح، ويحرِّف – وبكل جرأة – الكلم عن مواضعه، وينسب إلى شرع الله ما تعلم عجائز البوادي أنه منه براء، وينقُض ما عَلِمه واستسلم له الأولون والآخرون، بل وتراه يسفههم ويسخر منهم، ويزدري أفهامهم، ويَصبَغ على خرافاته من الألقاب والممادح ما يحاول عبثاً أن يغطي به سخفها وخزيها.

وقد بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة هذه الشركةِ الشيطانية، وأنها منتصبة في كل حين لتأدية مهمتها، وإغواءِ من التفت إليها، أو أصغى لدعواتها، لنكون منها على حذر وتيقظ فلا ننخدع بدعاياتها وزخرف أقوالها، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، ثم قال: هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).]

وقال سبحانه وتعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)} [الأنعام/112]

وقال سبحانه: { يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27)} [الأعراف/27]

إذاً هذه هي وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يكون على الجادة، يسير على الحق ولا يبالي بمن خالفه، ويستمسك بالهدى ولا يعبأ بمن أنكره أو تنكر له، ويعتصم بحبل الله ولا يأبه بمن غمزه أو لمزه، ويحرص على رضا ربه ولو سخطت عليه الدنيا بأسرها، ويعتز بجميع دينه لو سفَّهه مَن سفهه، ويُبلِّغ الحق على نصاعته وجلائه ولو استبشعه أصحاب العقول المنحرفة والقلوب المريضة، وقدوته في ذلك مَن لا ينطق عن الهوى ولا يحابي في تبليغ الهدى كما قال الله تعالى له : {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)} [المائدة/67]، وقال له أيضاً : {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94)}[الحجر/94، 95]

أمتي الحبيبة..

إلى أمدٍ قريب كان الشعار الذي يرفعه زعماء الحملة الصليبية العصرية هو الحربَ على الإرهاب، ومطاردةَ القاعدة وقادتها وأعضائها –كما يزعمون–، ولقد قال العقلاء النبهاء من علماء الأمة وقادة المجاهدين عند أول هبوب ريح هذه الحرب،

إنها حرب صليبية سافرة كافرة تستهدف الإسلام والمسلمين، ولن تتوقف مساعي أصحابها وخطواتُهم عند حدٍ، ولن يكتفوا –كما يزعمون – بالاجتهاد في القضــاء على طائفة المجاهدين، ولن ينقضــي تنازل حتى يطالبوا بغيره، بل لن تُترَك قاعدة من قواعد الإسلام ولا أصلٌ من أصوله، ولا مسلمة من مسلماته، إلا ودهمتها حملتهم، وتقلبت يمينا وشمالاً لاقتلاعها ونسفها، لتنقل الأمةَ –كل الأمة– من البصيرة إلى العمى، ومن اليقين إلى الشك والحيرة، بل من الإيمان إلى الكفر وذلك هو مبتغاهم ومقصــدهم مهما تلونوا وتقلبوا فالقرآن كما فضــح أســلافهم يفضــحهم، وكما عرى أولئك يعري هؤلاء قال الله تعالى : {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ(120)} [البقرة/120]

فهي حربٌ تســتهدف معاقل الإســلام كلها، وتقتحم الديار كما تغزو العقول والأفكار، وتتجرأ على ســفك الدماء تماماً كما تتجرأ على نسف العقائد والعبث بالمقدسات.

ولقد استطاع دهاقنة ودهاة هذه الحملة الصليبية أن يغرسوا لهم غرساً من أبناء هذا الدين وفي وسط بلدان المسلمين يتولون التســويق لكثير من أفكارهم والترويجَ لنظرياتهم، وبثَ مصــطلحاتهم، وتكريرَ عباراتهم، ومحاولةَ إقناع المســلمين بها، أو على الأقل إماتة الشعور ببشاعتها وفظاعتها، لتصبح مع الأيام شيئا مستسغاً وفكراً متقبلاً ونظرة معتبرة.

ولأنهم عرفوا أن مفتاح نجاحهم في خطتهم هذه إنما هو في التنفير من الجهاد والمجاهدين، والقضــاءِ عليهم عســكرياً بجانب محاربتهم فكرياً، فلا يكاد ينطق رجلٌ مغمورٌ ويتمتم بكلمات يعرِّض فيها بالمجاهدين حتى تســتنفر وســائل إعلامهم لإظهاره وإشهاره وإجراء الحوارات المتواصلة واللقاءات المتتالية لإرشاد العباد إلى تلك الفكرة الفذة التي تفتق عنها عقل رجلٍ معتوه لا يكاد يبين.

وللأسف فلقد رأينا الكثيرين ممن ينتسبون إلى قادة الحركات الإسلامية، أو الدعاة، أو المفكرين، مَن شمروا عن ساعد الجد وراوحوا يعقدون المؤتمرات تلو المؤتمرات، واللقاءات تلو اللقاءات، والندوات بعد الندوات، ويشــدون الرحال من دولة إلى دولة، ليعززوا كثيراً من المفاهيم الضــالة التي تأتي على الإســلام من أصــله، ولا يعني الأخذُ بها إلا نقضَ عراه عروة عروة، وهدمَ أسسه أساسا أساساً، وهم ينسبون ضلالاتهم وانحرافاتهم إلى دين الله، فأضافوا على سوئهم سوءاً، فصدق فيهم قول الله تعالى : {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)} [آل عمران/78].

وإن أعظم ما يســترون به عوجهم، ويســوِّقون به ضــلالهم، هو انتســابهم للوســطية والاعتدال والاتزان، وقد صــاغوا لهذه الكلمات معانيَ ارتضوها لأنفسهم، ونحتوها من بنات أفكارهم، أساسها التلفيق والتوفيق، ووسيلتها التمييع والتطويع، ولبها وجوهرها إقرار أعين الغرب بما يرضيهم ويُطيِّب نفوسهم ويسكِّن هيجانهم ولو نُسِف مع ذلك دين الله نسفاً.

فما هي الوســطية التي يدعو لها هؤلاء ويدندنون حولها صــباح مســاء، وما هي الوســطية التي جاء بها دين الله عز وجل وارتضــاها لنا ومدح أمة نبيه بها فقال : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَــطًا لِتَكُونُوا شُــهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُــولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (143)} [البقرة/143]

أمة الإسلام..

إن تحديد المفاهيم الشرعية التي نصوغ لها من الألفاظ ما يحسِّنها ويزينها لا بد أن يكون معتمداً على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لأن العقول متفاوتة، والأفكار متضاربة، وموازين الأمور مضطربة، والأهواء والرغبات تتسلل إلى هذا المعنى أو ذاك فتعبث به وتلوث بهاءه، فلا بد – إذاً– من مرجع ثابت راســخ محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إن قال فقوله الحق، وإن حكم فحكمه العدل، وإن أرشــد فإرشــاده الهدى، وليس ذلك إلا كتابَ الله تعالى كما قال عز وجل : {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَــدَتِ السَّــمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُــونَ (71)}[المؤمنون/71]

فالوسطية كلمةٌ ارتضاها الناس، واستحسنوها وربما اتفقوا على مدحها، لما تنبي عنه من معنى العدل والاتزان والاعتدال، إلا أن الكثيرين ممن نصــبوا أنفســهم للدعوة إليها ، قد فرغوها من معناها الشــرعي الســامي، وافرغوا فيها ما تشــتهيه أنفســهم وترتضــيه ميولهم من المعاني المنحرفة والمفاهيم الزائغة التي ما أنزل الله بها من ســلطان، ثم قدموها للناس وقالوا لهم هذه هي الوسطية فاتبعوها وانبذوا من خالفها أو تخلف عنها.

إن المفهوم الصــحيح للوســطية هو التمســك الكامل بدين الله تعالى الذي ارتضــاه للناس كافة، ولو كره ذلك من كره، والسـعي لنشـره بينهم من غير تحريف ولا تزييف ولا مخادعة ولا مراوغة، وعرضُـه عليهم عرضـاً صـريحاً بيناً من غير تلاعب بأحكامه، ولا تمييع لأصوله، ولا تغيير لشرائعه، ولا إخفاء لحقائقه، ولا تحرج من تقرير مسائله، ثم ليقبله منهم من قَبِل وليردَّه من يرد: { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22)} [الغاشية/21، 22]

فنحن ما أمرنا بأن نُهلك أنفسـنا ونَبخَعها لأجل صـدود الناس وشـرودهم عنه، وإنما علينا البلاغ للحق الصـريح والتمسـك بالهدى الجلي.

قال الله تعالى لنبيه صــلى الله عليه وســلم : {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَــكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَــفًا (6)} [الكهف/6]،وقال سـبحانه : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَـكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَـأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّـمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)} [الشعراء/3، 4]

فبصــــفة الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تبوأت هذه الأمة منزلة الخيرية بين الأمم، {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (110)} [آل عمران/110] ومن ثم اســـتحقت أن تكون أمة وسطاً شاهدة على الناس، كما قال تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة/143]

، فمهمة أمة الإسلام ليست مضاهاةَ الأمم الكافرة، ولا التملق لها، والاجتهادَ في طلب إرضائها، ولا البحثَ عن عوامل التقارب معها، ولا التنقيبَ عن أسس التعايش التي تجمعها بها، ولا بذلَ الجهود وإنفاق الأعمار لمطاوعة الواقع والاستسلام له، فما خُلقنا لهذا، ولا أمرنا بهذا إنما [الله ابتعثنا واللهُ جاء بنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نُفضي إلى موعود الله الجنةِ لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي] هكذا لخص ربعي بن عامر رضي الله عنه، مهمة أمة الإسلام، وهذه هي الوسطية الحقة التي فهمها الصحابة رضي الله عنهم ودعوا إليها بعيداً عن التخرصات الباردة، والتعقيدات المضللة، والأفكار الهائمة.

فليس لأحد أن ينتقي من دين الله ما يحب ويهوى، ولا أن يطوع أحكام الله لمن يحب ويهوى، ولا أن يقدم دين الله بالصورة التي يحب ويهوى، وقد قال الله تعالى : {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)} [يوسف/108]، إذا هي دعوة إلى سبيل الله –والتي تعني الدين كافة– وليست دعوة إلى نتائج الآراء المجردة، ولا مستحسنات الأفكار المستحدثة، وقد قال الله سبحانه وتعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208)} [البقرة/208]

فالإسلام كله دين العدل ودين الوسط ودين القيمة، ولن يفلح الناس ولن يجدوا (الوسطية الحقة) إلا بأخذه كما هو، ونشره كما هو، وهو دينٌ ربانيٌّ غني عن تعديلنا وتوسيطنا وتقويمنا، فأحكامه ليست أحكام جور حتى نعدِّلها، وسبيله ليست سبيل إفراط وتفريط حتى نوسطها، وشرائعه ليست شرائع عوج حتى نقومها : {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)} [النحل/90]،وقال سبحانه وتعالى : {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)}[النساء/58]

إن الوسطية ليست دليلاً شرعياً قائماً بذاته بحيث نجعلها حاكمة على شرائع الإسلام، ومهيمنة على عقائده ومفاهيمه، ومقيدة لأصوله وفروعه، بل هي صفة ملازمة لدين الله تعالى، وملاصقة لكل حكم من أحكامه، فحيثما وجد حكم الله الذي أنزله في كتابه أو شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم سواء في صغير الأمور أو كبيرها، فهو حكم وسط عدل سمحٌ لا حرج فيه ولا مشقة حتى ولو استثقلته بعض النفوس، ونفرت منه بعض القلوب

فالداء ليس في أحكام الله حتى نسعى لإصلاحها وتعديلها لتوافق تلك النفوسَ والقلوب، ولكن المرض المستحكم هو في هذه النفوس والقلوب التي تحتاج إلى إخراجها من هوسها ووساوسها لتدرك الحق الوسط على ما هو عليه بصفائه وجلائه لا على الصفة التي تريدها هي وتهواها وبهذا فقط تنتفع بالحق وتخرج إلى رحمة العدل وسعة الوسطية وإلا فإنها ستبقى تتقلب في غيها وتتعذب بشقائها وإن حسبت أنها تحسن صنعا : {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)} [محمد/14، 15]

وها نحن نرى كثيرا ممن رفع شعار الوسطية وتشبع بها زعماً وادعاءً قد جعلها مطية ينقض بها أسسا هي من مسلمات الإسلام ولا يبالي، وكلما خالفه المخالفون، وأنكر عليه المنكرون، رماهم بالغلو والتطرف وعدم الانفتاح على الواقع، حتى فتحوا الباب لكبار الزنادقة والملاحدة ليدخلوا على الإسلام ومن نفس الباب –بابِ الوسطية المزعوم– فيعيثوا فيه فساداً، فما تركوا منه شاذة ولا فاذة إلا ولاحقوها بأفكارهم، وطاردوها باستهزائهم وسخريتهم، ونسفوها بمعول وسطيتهم واعتدالهم، ومن حاول الأخذ على أيديهم وكف زندقتهم رموه بالتطرف والشطط والجمود ثم تمادوا واسترسلوا ليأتوا على الإسلام كله.

فبسم الوسطية والاعتدال اقتحمت قِباب المجالس الشركية لا لفتحها وإقامة عَلم التوحيد فيها وإنما للانفتاح عليها وتوطيد دعائمها، والتأكيد على شرعيتها، ومشاركة أربابها في تشريعاتها، فإذا صدع الصادعون بكلمة الحق التي أمروا بها وتلوا آيات الله البينات على هؤلاء اشمئزت قلوبهم ورموهم بالغلو والتطرف وعدم فهم السياسة، ووالله لن تغني عنهم سياستهم ووسطيتهم من الله شيئا، : { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} (10) [الطارق/9، 10]

فإذا قيل لهؤلاء المتشبعين بالوسطية : {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ(36)} [الأحزاب/36]، قالوا أنتم متشددون.

وإذا قيل لهم ألا يزجركم قوله تعالى : {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)}[التوبة/31]، قالوا أنتم حرفيون منغلقون.

وإذا قيل لهم : {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ(21)} [الشورى/21] قالوا : أنتم جامدون متزمتون.

وإذا قيل لهم : {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116)} [الأنعام/116]، قالوا إننا في زمن الديمقراطية، وسيادة الشعوب.

وباسم الوسطية والاعتدال نسفت عقيدة الولاء والبراء، وقطِّعت عراها والتي هي أوثق عرى الإيمان، واقتحمت حصونه الحصينة تحت الشعارات المنمقة والدعوات الملفقة فصرنا نسمع :الحضارات تتسالم ولا تتصادم، وتتحاور ولا تتناحر، والأديان تتظافر ولا تتنافر، وتتقارب ولا تتحارب، وانتصب بعض المنتسبين إلى الدعوة للترويج لهذه الدعوات الكفرية، وتسهيل أمرها في بلدان المسلمين، وتحريف الكلم عن مواضعه –وهم يعلمون في قرارة أنفسهم– أنهم كاذبون آفكون، ويا ويل من يفتري الكذب على الله، أفعلى الله تستدركون، ولدينه تزيدون وتنقصون، فما لكم كيف تحكمون.

حتى إنني سمعت مرةً أحد مروجي مثل هذه الدعوات يفتخر على شاشات التلفزة بأن عدداً من القساوسة والرهبان يتصلون به ليخبروه، بأنهم راضون عن دعوته وتسامحه، وأنه إن كانت مفاهيم الإسلام الحقيقية هي كما يعرضها وينشرها فليس بينهم وبينه خلاف، فهنيئاً لك هذه البشارة، وهنيئاً لك هذه الشهادة، فقلت في نفسي نعم والله إن كان الإسلام هو ما تدعو أنت إليه فليس بينكم وبينهم خلاف،

أما الإسلام الحق، والعقيدة النقية الصافية، والتوحيد الخالص فهيهات هيهات أن تلتقي أو تقترب من دين يقول : {المسيح ابن الله} ، ويقول {إن الله ثالث ثلاثة}، حتى قال اليهود قاتلهم الله من كثرة مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم لهم في صغير أمورهم وكبيرها : [ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه]

فوسطيتنا التي ندعوا إليها تقول لنا : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ (22)}[المجادلة 22]، وإن عددتم ذلك غلواً.

ووسطيتنا التي نسير على سبيلها أساسها : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23)} [التوبة/23، 24]، وإن شنعتم علينا واتهمتمونا في وطنيتنا.

ووسطيتنا التي نرسي قواعدها تنادي في الآفاق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57)} [المائدة/57] وإن قابلتم ذلك بالاشمئزاز والتغيظ.

ووسطيتنا التي ننافح عنها ونقاتل دونها رائدها وقائدها من قال الله عنه :{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ (4)} [الممتحنة/4]وإن قلتم إن ذلك دعوة للكراهية والتعصب، ومحاربة للسلام.

ووسطيتنا التي نستمسك بها ولا نحيد عنها قِيد أنملة هي التي نجدها في قول الله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51)} [المائدة/51]وإن اعتبرتم ذلك تطرفاً وجموداً.

وفي هذا الموطن أقول : يا علماء الصدق والصدع بالحق في جزيرة العرب، ها هو حامي حمى التوحيد كما يزعم علماء التملق والتزلف، يرفع راية التآخي بين الأديان، ويَهرِف بما لا يعرِف، ويحسب أنه قد وجد الحكمة التي جَهَدَ الكثيرون في البحث عنها لنزع فتيل الحروب، وقطعِ أسباب العداوة بين الأديان والشعوب، فهذا يومكم وقد حمي وطيس الشبهات، ونَعَقَت غربانُ الباطل، وأسفر الكفر عن وجهه العبوس، وآزر علماءُ المداهنة ظلمات الضلالات، وغاصوا في بطون الكتب لاستخراج أدق المشتبَهات وإقصاء الآيات المحكمات البينات، وأجهدوا أنفسهم لاختلاق الأعذار لهذا الأبله وحزبه مما لم يخطر على باله أو يمر على خاطره، ولم يحلم به في ساعة من ليل أو نهار.

وإنها واللهِ لساعة الفوز لمن أراد أن يكون من سادات الشهداء، فيقومَ في وجه هذا المعتوه المرتد، ويرد هراءَه بالحق الصراح الذي لا لبس فيه ولا التباس، وليكن بعد ذلك دمه وجسده قرباناً ترتوي به شجرة الإسلام الذابلة في جزيرة العرب، كما ارتوت أرض باكستان بدماء أهل الصدق والحق من أمثال الشهيد عبد الرشيد غازي وطائفته رحمهم الله.

ووالله إن لم تقفوا اليوم وقوف الأبطال في وجه هذا الطاغية العابث، وأفسحتم المجال لعلماء الضلالة وخطباء سجع الكهان يبررون له ويسوّغون شطحاته وحماقاته ليأتين اليوم الذي ترون فيه نواقيس الكنائس تدق في قلب جزيرة العرب، وما أمر دولية قطر منكم ببعيد، ولتعلمن نبأه بعد حين!

فلا وسطية ولا تقارب ولا تعاضد بيننا وبين أهل الملل الكافرة، ومتى اجتمع الضوء والظلمات في موطن :{ فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)} [البقرة/137]،وهذا نبينا صلى الله عليه وسلم قد كان فرقاً بين الناس، فعبثا يحاول من أراد أن يجمع بينهم على غير سبيل الهدى.

وباسم الوسطية عاث العائثون في مفهوم الجهاد، فسلطوا عليه أقلامهم وألسنتهم، فدنسوا محياه، ولوثوا رونقه، وراحوا يفرغون أحكامه في قالب هزيمتهم وجبنهم وخورهم، ليخرجوها لنا بصفة ممسوخة لا يعرفها الأولون ولا يرضاها الصادقون ولكن يكفي أن يقتنع بها كفرة الغرب المتحضرون.

فقد كانت الهجمة من قبلُ – على بشاعتها وشناعتها – تقتصر على جهاد الطلب الذي حار المنهزمون في توجيهه، وطأطئوا رؤوسهم حياء عند ذكره، وخجلوا إن واجههم أعدائهم بحقيقته، أما اليوم فها هو جهاد الدفع يلاقي ما لقي سابقه من مساعي التشويه والتنفير وجهود التمييع والتغيير، فصار الجهاد مقاومة، وقسمت المقاومة إلى شريفة وغير شريفة، ثم أثبتت شرعيتها لا بالكتاب المحكم ولا بالسنة الصحيحة ولا الإجماع الثابت، ولكن بإقرار جميع الأديان السماوية والأعراف الدولية على إعطاء هذا الحق.

فحتى هذا الجهاد طمس معلمه الإسلامي، وقامت شعارات الوطنية والقومية ولافتات التحرير مقامه، فذابت معاني الجهاد السامية في مفاهيم السياسة الضائعة، وميعت أحكامه الصارمة باسم الوسطية الهائمة، وضيعت حقيقته النبيلة وسط ضجيج التعقل والاتزان والمصلحة.

حتى وصل التحريف والانهزام ببعضهم أن يقولوا بأن قتالنا لليهود المحتلين والنصارى المجرمين ليس قتالاً عقدياً، وإنما هو فقط صراعٌ على أرض احتلوها وديارٍ اغتصبوها، وهذا جزاء من يعرض عن الحق، وينقاد إلى استحسانات آرائه، وجواذب أهوائه، أن يتنقل من ضلالة إلى ضلالة، ومن عماية إلى عماية، ومن انحراف إلى انحراف : {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)} [النور/63]

فليعلم هؤلاء وغيرهم ممن تقمصوا ثوب الوسطية زوراً وميناً أن الإسلام دين السيف، نقولها ولا نستحيي منها، ولا نتهرب من رفع الصوت بها، فنبينا هو الضحوك القتال، ونبي الرحمة والملحمة، فالسيف والتوحيد لا يفترقان أبداً، فلا إقرار للتوحيد بغير السيف والقوة، ولا معنى للسيف إن لم يكن لأجل التوحيد ، قال الله تعالى : {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)} [الأنفال/39]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : {بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد اللهُ تعالى وحده لا شريك له}

وقال صلى الله عليه وسلم : [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله]

وإننا لا ننتظر لإسباغ الشرعية على جهادنا الطلبي والدفاعي، إقراراً من دين سوى الإسلام، ولا قانوناً من منظمة عالمية أو شرعية دولية، ولا نُظماً تواطئت عليها الأعراف الأرضية، فكل هذه أصنام يجب هدمها، وطواغيت يلزم السعي لنسفها، وهي أول ما يجب أن يكفر به ويتبرأ منه، وهي وإن عظمها أهلها وفخموها وأنفقوا عليها نفائس أموالهم، وقضــوا لنشــرها زهرات أعمارهم فإنها ومَن يروج لها أهون عندنا من جناح البعوضـــة، وأحقر من الجعلان: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آَلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99)} [الأنبياء/98، 99]

فدين الإســلام لا الأمم المتحدة ولا الأعراف الدولية هو الذي قال لنا : {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُـــولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَـــاغِرُونَ (29)}[التوبة/29، 30]،

وما قال لنا كفوا عنهم إن لم يحتلوا أرضـــكم، ويداهموا بلادكم، ويتســـلطوا على دياركم، فالأمر ليس بحاجة إلى فلســـفات الوسطية الإنهزامية، ولا تخرصات عقول الاتزان الكاذب، ولا التمويه على الأعداء وتضليلهم لنخبرهم بخلاف ما أمرنا، فإما أن يؤمنوا بالله، وإما أن يخضعوا لأحكام الإسلام، فإن أبوا استعنا بالله وقاتلناهم، وهو أمرٌ جليٌ لا يخلو منه كتاب من كتب الفقه ولكن عميت عنه أبصــار المنهزمين لما عميت بصــائرهم : {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِـفُ أَلْسِـنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116)} [النحل/116]

وباســـم الوســـطية والاعتدال تمحل المتمحلون لإلغاء ومحو كثيرٍ من الألفاظ والكلمات الشـــرعية التي تثير حفيظة الغرب الكافر، وتحول دون التقارب والتفاهم معه، فوضـعوا كلمة "الآخر" محل كلمة "الكافر" ، واسـتبدلوا بكلمة الكافرين "كلمة "غير المسلمين"، ووصفوا دين النصرانية، واليهودية، "بالأديان السماوية" بل بالغ بعضهم في شططه فسمى اليهود والنصارى "بالمؤمنين"، فجرت بمثل هذه الكلمات ألسـنتهم، وسـالت بتدوينها أقلامهم، وامتلأت منها مواقعهم وحواراتهم، وثقل على أصحابها الوسطيين أن ينطقوا بما نطق به كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، حتى صار حال بعضهم يشبه حال من قال الله فيهم : {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْـــطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا (72)} [الحج/72]

أما وسطية الإسلام فهي التي قسمت الناس إلى فريقين لا ثالث لهما، : {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ... (30)} [الأعراف/30]

فإما أن يكون من أهل الإيمان وإما أن يكون من أهل الكفران، قال الله تعالى : {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2)} [التغابن/2]

وإن هذه الدعوات المنحرفة التي تتسلل إلى مسائل الدين على مهل واختفاء، وبتلبيس ومرواغة، ويهون الكثيرون من شأنها، بل يعدها بعضـــهم ظفراً ما بعده ظفر، وحكمةً ما فوقها حكمة، أقول : إن هذه الدعوات إن لم تواجه من علماء الأمة الصادقين ودعاتها الغيورين بكل حزم وجرأة وصراحة، ستكون عاقبتها إحداث دين جديد – بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان–، وإني لأرى معالمه قد بدأت تتشكل، فهو دينٌ جديدٌ في مصطلحاته، جديدٌ في مفاهيمه، جديدٌ في ضوابطه وأصوله، جديدٌ في عقائده وفروعه، بل جديدٌ في عباداته ومعاملاته، وجديدٌ في مصـادر تلقيه ، ثم يقال لنا هذا هو الإسـلام المعتدل، والإسـلام المتزن، إسـلام القرن الحادي والعشـرين، إسـلام الانفتاح والتآخي والسـلام، إسـلام الوسـطية والتعقل، وما هو إلا إسلام (مؤسسة راند) وضراتها، الإسلام الذي يسعى أئمة الكفر في حملتهم الصليبية العصرية للوصول إليه، ولن يكون لهم ذلك حتى يلج الجمل في سم الخياط، فموتوا بغيظكم والعقوا الحسرات، فدين الله محفوظ، ولا يُهلكن امرؤٌ إلا نفسه : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ فَسَـيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْـرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَـــرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَـــهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)} [الأنفال/36–38].

فهذا هو دين الإسـلام بوسـطيته الحقة، وعدله الكامل، ودعوته الصـريحة، لا ما يموه به أصـحاب النفوس المنهزمة، والقلوب المريضـــة، والعقول المضـــللة وإن صـــفق لهم الملايين : {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَـــاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَـــاءَ فَلْيَكْفُرْ (29)}[الكهف/29]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.